الصراع الإيديولوجي بين الشخصيات الثورية في رواية "ذاكرة الجسد" : لـــ أحلام مستغانمي

أ. كريبع نسيمة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة – جيجـــل

ملخـــّص:

أصبحت الرواية الجزائرية ديوانا للثورة التحريرية، وناطقا باسمها، إذ لا نكاد نقرأ رواية لكاتب جزائري إلاّ و صادفنا بعضا من ملامح هذه الثورة المقدسة، مع تمثلات هذا التواجد الثوري فيها؛ كعرض بعض الأحداث التاريخية الممزوجة بالواقع السردي، أو توظيف شخصيات ثورية حقيقية كانت أم من صنع خيال الكاتب، والإفادة من تجربتها الثورية لإثراء الأحداث الروائية، فقد شكلت الثورة الجزائرية صرحا تتصارع فيه القيم الثورية والنوازع النفسية للشخصيات الروائية، هذه الصراعات التي تزداد عمقا وحدة كلما كان هناك تباين بين أجيال الشخصيات الروائية، فكلّ جيل ينظر إلى الثورة من زاوية تختلف عن زاوية نظر الجيل الآخر.

تمهيـــد:

لقد ساهمت الثورة التحريرية المباركة في تغيير الراهن الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الجزائري، بعد أن أصبحت الوسيلة الفعالة الوحيدة لمواجهة الاستعمار الفرنسي في ظلّ التغيرات والتحولات العالمية من أجل حرية الشعب، وبطبيعة الحال كان امتداد هذه الثورة ماثلا في المجال الفكري الثقافي – أثناء و بعد هذه الثورة – فأثناء الحرب التحريرية كان دور الأديب الجزائري شاعرا أو قاصّا أو روائيا لا يقلّ جدارة وأهمية عن نظيره المجاهد بالسلاح لمواجهة طغيان وبطش المستعمر الفرنسي، مواكبين بالفكر التطلعات الشعبية للحرية، مسجلين آمال الجزائريين، ناقلين واقعهم إلى سماء الأدب عساه يضيء ظلمة الاستبداد الفرنسي، فسعوا نحو بلورة اتجاهاتهم وتكييف ممارساتهم بما يخدم مصلحة الأمّة ويحافظ على بقائها واستمرارية نموها، واسماع صوت الاضطهاد إلى العالم بأكمله عن طريق لغة القول والكلمة والقلم، هذه اللغة التي زاد بريقها و تضاعف وهجها بعد أن تكللت الثورة بالنجاح، وأهدت الجزائر استقلالها.

لينعكس الواقع الجديد على صفحات الأدب وبالأخص فن الرواية، من خلال أعمال روائيين سارعوا لتمجيد هذه الثورة و تخليد مآثرها من جهة، والاستفادة من بحرها الغني بالمضامين الفكرية والدلالية ومختلف إيحاءات الوقائع الحياتية من جهة ثانية، مجتازين حدود الواقع مازجين ملامحه بجماليات التخييل، وفنيات اللغة السردية المحمومة بنار الثورة الجزائرية الخالدة، التي ساهمت في توطين الشكل الروائي الجزائري، من خلال توظيف مجريات هذه الثورة بمختلف روافدها، و قد كانت فكرة الصراع الإيديولوجي بين الشخصيات الثورية **(حقيقية** أو **خيالية)** أحد تلك الروافد التي استقت منها الروايات الجزائرية مضامينها الفكرية، وهو الحال مع

رواية **ذاكرة الجسد** لـــ: **أحلام مستغانمي** ومن هنا كان من الضروري في هذه الدراسة طرح الإشكالية الآتية: ماذا أضافت الثورة كمكونّ سردي أساسي للروايات المعاصرة عموما و لرواية ذاكرة الجسد خصوصا؟ وإلى أي مدى وصل الصراع الإيديولوجي بين الشخصيات الثورية في رواية ذاكرة الجسد؟

المحـــور الأول: حضور الثورة كمكون سردي في الرواية الجزائرية

كان التوجه إلى توظيف الثورة التحريرية في الرواية الجزائرية منهجا ناطقا باسمها، إذ لا نكاد نقرأ رواية لكاتب جزائري إلاّ وصادفنا بعضا من ملامح هذه الثورة المقدسة، وتمثُّلات هذا التواجد الثوري الإيديولوجي فيها، كعرض بعض الأحداث التاريخية الممزوجة بالواقع السردي، وتوظيف شخصيات ثورية حقيقية أومن صنع خيال الكاتب، والإفادة من تجربتها الثورية لإثراء الأحداث الروائية، فقد شكلت الثورة الجزائرية مناخا تتصارع فيه مختلف القيم الثورية والنوازع النفسية للشخصيات الروائية، هذه الصراعات التي تزداد عمقا وحدة كلما كان هناك تباين في أجيال الشخصيات الروائية، فكل جيل كان ينظر إلى الثورة من زاوية تختلف عن زاوية نظر الجيل الآخر.

يشكل حضور الثورة كمضمون فكري في الرواية الجزائرية بمختلف أنواعها مسألة هامة، تحتاج إلى دراسة عميقة حول جميع المفاهيم المساعدة في تناول مسألة الأدب الثوري من خلال تبنيه لإيديولوجية معينة شكلت في كثير من الأحيان نقطة انعطاف حقيقية في ثقافة الروائي الجزائري المعاصر الذي دأب على تتبع الصيرورة التاريخية للأحداث الثورية، والبطولات الوطنية وما أفرزته من إرهاصات فكرية في تكوين إيديولوجية المجتمع،

والسياسة الخاضع لها على جميع الأصعدة، « فالأدب يعتبر شكلا من أشكال الإيديولوجيا، ومن ثم فالأدب شيء تابع لوجود ما، بل هو وجود لإديولوجيا ما»[1] والكاتب في الأدب الثوري يكرس ويدافع عن إيديولوجية مجتمعه التاريخية من خلال كل التصورات التي يعرضها في مشاهده السردية كوجه من التمازج بين الفني والأيديولوجي« فالأديب كما يعبر بالكلمات عن أوضاع معينة في عصره فإنه ينحاز شعوريا أو لاشعوريا إلى إيديولوجية عصره أو يعارضها»[2]، وهذا ما تجسد في الروايات الجزائرية الموظفة للواقع التاريخي الثوري .

فقد ساير الأديب الجزائري الثورة التي كانت تخوض حربا مع الاستعمار الفرنسي، من خلال ما يعرضه من إبداع جمالي وفني وإيديولوجي يعكس منحى الثورة وجاهزيتها لإيديولوجيا معينة، وبما أنّ الجزائر اختارت المنحى الاشتراكي كمنهج تدافع عليه من أجل كسر فلسفة المستعمر الفرنسي وإيديولوجيته التي كرست لغة الهيمنة والبطش بالشعوب الضعيفة، كان لزاما على الأديب الجزائري هو الآخر تقديم نفسه وإنتاجه الأدبي كنوع من الإيديولوجيا المعارضة لفكر وإيديولوجية المستعمر، وتبني منهج واحد يشكل هوية المجتمع ويتبنى رؤى وضعها رجال السياسة والفكر من قادة الثورة العسكريين والسياسيين على وجه الخصوص من أجل إحداث التغيير، وشحذ الهمم والمناداة بالحرية وفق تصورهم، فسخر الروائيون أقلامهم وأفكارهم للذود عن فلسفة وإيديولوجية الثورة الجزائرية في القرن الماضي مشكلين منها مقدسا يشكل هوية الكتابة الروائية ما بعد الاستقلال الجزائري« فكل عمل أدبي قابل للتحديد من حيث مضمونه ولغته وأسلوبه والإيديولوجيا التي تعبر عنه»[3] من خلال إسقاط نفسية الأديب وما يقدمه من رؤية لواقعه بصورة فنية تسبح «في عالم الجمال، والوجدان لأنه يرى الأشياء والأحاسيس

رؤية طازجة»[4]، فكثيرا ما كان المبدع يستعير بعض أدواته السردية من الثورة ومعانيها ورموزها وتواريخها وشخصياتها من أجل تبليغ رسالة ما للمتلقي الذي يساهم في التفاعل مع الروائي في تلك المرحلة الانتقالية من التاريخ الجزائري.

إنّ الروايات الموظفة لملامح الثورة الجزائرية تضع المتلقي أمام متعة الفن السردي بخياله وتصويره ولغته، ومتعة الموضوع بزخمه وروعته وإيديولوجيته التاريخية التي تركت آثارها في نفوس الجزائريين، فهذا هو الحال مع الثورة الجزائرية العظيمة التي أذهلت العالم ببطولات أبنائها، ورسمت للجزائر إيديولوجيتها التي لا تؤثر عليها العوامل والمتغيرات، ومهما يكن فإنّ عظمة الثورة الجزائرية تعدّ محطة من محطات الإبداع الإيديولوجي، ومصدرا مهما من مصادر الإلهام الفني والجمالي الذي عرض فيه المبدع صورة عن تاريخ الجزائر وإيديولوجية المجتمع الذي تتشاكل معه، إذن « فالإيديولوجيا باعتبارها رؤى للعالم ومجموعة من التصورات والأفكار تتحقق ماديا وتتحول إلى شيء حقيقي ملموس، وتبدو ماديتها في الأعمال الأدبية والنصوص التي تنتج في ظروف تاريخية ومرحلة معينة من مراحل المجتمع»[5]، لتصبح النصوص السردية التي تناولت الثورة الجزائرية سجلا تاريخيا هاما في توثيق بطولات وأمجاد الثوار والمجاهدين الذين قدموا أنفسهم ثمنا لحماية الوطن واسترجاع كرامته، و صورة إبداعية صادقة بعيدة عن تهمة النقل الحرفي للتاريخ.

ولمّا كانت الثورة أهم مكون سردي شكّل «المرجعية الأيديولوجية والفنية التي ينطلق منها أغلب الروائيين الجزائريين»[6] راح الأدباء يجمّلون منتجاتهم الروائية بكثير من المقدسات الثورية من أحداث وشخصيات ومنجزات، ما أدّى إلى ظهور عدد من الروايات باللغتين العربية والفرنسية

أثناء وبعد الثورة المجيدة، من مثل رواية "الأرض والدم" لمولود فرعون، رواية "الأفيون والعصا" لمولود معمري، رائعة كاتب ياسين رواية "نجمة"، رواية "اللاز" للطاهر وطّار، المجموعة القصصية "على الشاطئ الآخر" لزهور ونيسي،" رواية الأمير" لواسيني لعرج، رواية "على جبال الظهرة "لمحمد ساري، رواية "طيور في الظهيرة لمرزاق بقطاش"، رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، هذه الأخيرة التي تناولت الثورة الجزائرية بصورة غير تلك الصورة النمطية التي سيطرت على الإنتاجات الروائية السابقة لها، فالرواية وشّحت الثورة بثوب القداسة، فكانت الوجاهة الثورية هاجسا تتصارع من أجله الشخصيات الثورية، بين من يرى في الثورة تاريخا مقدسا لا ينبغي المساس به، وبين من يسعى للاستفادة من الإرث الثوري لأغراض مادية و شخصية.

ومن هنا كانت رواية "**ذاكـــرة الجسد**" للروائية "**أحلام مستغانمي**" من أبرز الروايات التي وظفت الثورة التحريرية توظيفا فنيا جماليا و أيديولوجيا إذ تنطلق أحداث هذه الرواية وفق البعد الزمني أساسا من أحداث الثورة التحريرية الجزائرية التي شكلت نقطة محورية لرسم حدود الرواية، واختيار المبدعة للمنهج الإيديولوجي وتشكيل الأرضية السردية لها من خلال عرضها لفعالية كل شخصية داخل العمل السردي ودفاعها المستميت عن مبادئ الثورة التحريرية كمقدس ثابت، وهذا ما تقدمه شخصيات أحلام مستغانمي الثورية في رواية ذاكرة الجسد، من خلال العلائق الإيديولوجية لكل شخصية تاريخية ثورية، وما تقدمه من تصور لمفهوم الثورة، وحمولاتها الفكرية والسياسية والفلسفية داخل المجتمع، ولعلّ الشيء الملاحظ على جميع

شخصيات الرواية هو التشبع بنوازع الذات التي قدمت العديد من التصورات حول ثقافة وإيديولوجية كل شخصية، ودورها داخل العمل السردي.

2- المحور الثّاني: الشخصيات الثورية في ذاكرة الجسد والصراع الأيديولوجي.

تعدّ رواية **ذاكرة الجسد** لأحلام مستغانمي من أبرز الروايات التي وظفت الثورة التحريرية توظيفا فنيا جماليا و إيديولوجيا، إذ تنطلق أحداث هذه الرواية وفق البعد الزمني أساسا من أحداث الثورة التحريرية الجزائرية التي شكلت نقطة محورية لرسم حدود الرواية وتشكيل الأرضية السردية لها ،فنجد أنّ أحلام مستغانمي اهتمت بتوظيف عدة شخصيات ثورية ضمن مدونتها، من بينها الشخصية الثورية "**خالد بن طوبال**"، فالثورة قلبت حياته رأسا على عقب في إحدى المعارك التي فقد فيها ذراعه اليسرى، لتبدأ صراعاته في الحياة إضافة إلى شخصية "**سي الطاهر**" ذلك القائد الثوري الذي استشهد في إحدى المعارك ليتخبط ولداه في مساومات ثمنها اسمه الثوري، كما وظفت الكاتبة شخصية "**سي الشريف**" شقيق سي الطاهر والذي حاز بفضل ذلك على منصب هام بفرنسا، وصولا إلى شخصية(**سي...**) كإحالة إلى قمة الانتهازية لاستغلال الثورة لأغراض مشبوهة، والذي أصر على ارتباطه بابنة القائد سي الطاهر طمعا في استثمار اسم والدها.

وبهذا كانت رواية ذاكرة الجسد مسرحا واسعا للصراعات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تتخبط فيها الشخصيات الثورية، فمن شخصية إلى أخرى تختلف درجة وحدّة هذه الصراعات، المنبثقة أساسا من رحم الثورة الجزائرية بكل ما حملته من آلام وتضحيات من جهة، ومن آمال وأحلام من جهة ثانية ومن كشف للانتهازية والخيانة الوطنية من جهة ثالثة، فالثورة أظهرت الكثير من المفارقات، وكشفت الكثير من التلاعبات

والدسائس بعد الاستقلال من قِبل من تربطهم قرابة بشهداء الثورة ومجاهديها، أو حتى ممن كانوا في صفوفها مناضلين ليتحولوا بعد الاستقلال إلى مستغلين لأمجاد الثورة وقدسيتها على حساب الوطنية وعلى هذا الأساس تباينت الصراعات في الرواية واختلفت من شخصية ثورية إلى أخرى كما يلي:

1/2- الصراع الإيديولوجي للشخصية الثورية خالد بن طوبال:

"**خالد بن طوبال**" شخصية رئيسة متطورة، ونامية، هو البطل الرئيس الذي كتبت أحلام مستغانمي روايتها على لسانه، تطورت صراعات خالد الإيديولوجية بتطور الأحداث فمن الناحية السياسية، بدأ حياته مناضلا في صفوف الثورة الجزائرية منذ السادسة عشر من عمره، والتحق رسميا بالجبهة في سن الخامس والعشرين،« سنة 1955 وفى شهر أيلول بالذات»[7]، دخل السجن رفقة قائده ومثله الأعلى "**سي الطاهر**" الذي كان يوكله المهمات الصعبة، والخطيرة التي تتطلب منه مواجهةً مباشرة مع العدو، ورفعه بعد عامين إلى رتبة ملازم ليتمكن من إدارة بعض المعارك لوحده، وأخذ القرارات العسكرية، وقد صرّح **خالد** أنّ الرتبة التي حملها قد منحته شهادة بالشفاء من ذاكرته، وطفولته التي حُرم فيها من والدته، ومن الاستقرار العائلي.

غير أنّ الثورة التي هرب إليها قلبت حياته رأسا على عقب في إحدى المعارك «التي دارت على مشارف باتنة»[8]، فقد أصيب برصاصتين في ذراعه اليسرى فكان لزاما عليه الانتقال إلى تونس لبتر ذراعه، وذلك لاستحالة استئصال الرصاصتين، لتكون هذه الحادثة الثورية نقطة انعطاف وتحول على أكثر من صعيد، فالثورة هنا تم تخليدها روائيا و تاريخيا ببتر ذراعه، وبتر أحلامه بمواصلة النضال الثوري، عندها تماما بدأ هاجس

النقص والعجز يراود خالد ويضرب به في كل صوب، فهو لم يعد ذلك المجاهد الملازم بل أصبح ذكرى مجاهد لاجئ.

يستطيع خالد تجاوز هذه العقبة بلجوئه إلى ممارسة فن الرسم ،الذي تمكن من خلاله أن يتخطى أزمة النقص، حين رسم لوحة "**حنـــــين**" (1957) و التي تمثل جسر **(قنطرة الحبال)** في مدينة قسنطينة، رسمها خالد كأول تجربة فنية له، ولأنّ الفنّ «خلق وإبداع فيه يجد الإنسان ذاته، ويعبر عنها، وإنّ كان في الوقت ذاته يعبّر عن مجمل الظروف المعقدة التي تتم فيها عملية الإبداع»[9] فإنّ "**خالد**" الفنان انطلق في مغامرة الرسم من هذه النقطة، انطلق من ظروف عصيبة أحاطت به، ظروف اجتماعية، وسياسية وصحية معقدة.. وبمساعدة من الطبيب "**كابوتسكي**" اليوغسلافي قرر خالد دون سابق تخطيط، ولا معرفة أن يمارس الرسم أن يتمرن عليه، فقد كان دائما يسترجع كلمات الطبيب وهو يخاطبه «إذا كنت تفضل الرسم فارسم، الرسم أيضا قادر على أن يصالحك مع الأشياء، ومع العالم الذي تغير في نظرك لأنك أنت تغيرت وأصبحت تشاهده وتلمسه بيد واحدة»[10]، فلم يكن أمامه من خيار سوى الرسم ،ليشفى من حزنه ومن يأسِهِ، هو الذي لا تفارقه جسور مدينته، ولأنّ «العمل الفني لابد وأن يكون مسبوقا بالفكرة وبالإرادة»[11]، وهذا ما توفر لـــ"**خالـــد**" بعد معاناة قاسية كان ميلاد حنين تلك اللوحة التي مثلت اختالا للماضي الذي عاشه خالد، اختزالا لكل مشاعره المتضاربة من خوف وألم، من حبّ للوطن و للجبهة، ولسي الطاهر، ومن حلم بالاستقلال لوطن معلق كالجسر الذي تحمله فالدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة « تبين أن نجاح التعبير عند بعض الفنانين يرجع في كثير من الأحيان إلى ما اختزنوه في اللاشعور من شحنات كثيرة، كانت تتكون تدريجيا منذ طفولتهم(...) فيظهر هذا الفيض الشعوري بصورة مثيرة ملفتة تبين أصالتهم»[12]،

وخالد يعدّ واحداً من هؤلاء الفنانين الذين ظهرت أعمالهم الفنية وكأنها استلهام للتراث أو محاولة للسيّر في كنفه.

فالشعور بأصالة "**خالـــد**" الموروثة شيء بديهي، فهو الإنسان المثقف الذي قضي أعوام غربته بتونس في تعلم العربية، والتعمق فيها، ليتجاوز عقدته القديمة كجزائري لا يتقن بالدرجة الأولى سوى الفرنسية، وأصبح في بضع سنوات مزدوج الثقافة يعيش بالكتب، ومع الكتب[13]، ناهيك عن الوظيفة التي استلمها بعد الاستقلال حين عودته إلى أرض الوطن كمسؤول عن النشر والمطبوعات بالجزائر، بعد أن رفض كل المناصب السياسية التي عرضت عليه، والتي كان الجميع يلهثون للوصول إليها[14]، فقد كان رجل القيم والأنفة، لم يسمح يوما بأن يضع الوطن رهن المساومات والأطماع.

يظهر في حياته شاعر فلسطيني يدعى "**زيـــاد**"، وقد كان مناضلا منخرطا في السلك الفدائي، كان صديقه زياد السبب في مغادرته الجزائر إلى فرنسا ليتفرغ إلى مهنة الرسم كوسيلة للتعبير عن التوتر الذاتي الذي يحسّه، فلا بد أن يبدأ الفن من قضية رفض لشيء ما، وخالد كان قد لبس قضية الرفض، رفض موت الأم، ورفض الجرح الذي ينزفه الوطن، رفض الذراع الذي بُتر، رفض الغربة، فلم يبق له سوى الحنين إلى كل من فقدهم.

ويشاء القدر الروائي أن يلتقي خالد بأحلام ابنة قائده سي الطاهر بعد ربع قرن في معرض للوحاته الفنية بباريس أين تتفجر الذاكرة: غربة، وحنينا، وحبا وأمومة، ليتغير مجرى حياته نهائيا وليزداد تعلقا، بالرسم وتجسيدا له، يعاني خالد هذه المرة من صراع نفسي، حينما يتعلق بأحلام ويحبها بأكثر من وجه، فمرة يجد فيها الأم، ومرة تظهر وكأنها قسنطينة، وفي كل مرة يرى فيها المرأة والحبيبة وهنا يزداد تألما لأنه يحس بأنه يسيء لقائده والد أحلام سي الطاهر، وفي نهاية المطاف يعود إلى مدينته قسنطينة ليبقى فيها ويتخلى

عن لوحاته التي أهداها إلى **كاترين** الفتاة الفرنسية التي تَعرَّف عليها في باريس، والتي لم تكن بالنسبة إليه أكثر من شهوة عابرة لرجل يعاني الكبت، والحرمان العاطفي.

2/2- الصـــراع الإيديولوجـــي للشخصية الثورية سي الطاهر:

"**سي الطاهـــر**": شخصية ثورية اكتسبت قدسية الثورة على طول صفحات الرواية، فقد كان سي الطاهر قائدا ثوريا مهما في جهة الشرق الجزائري، وما من شيء أهم عنده من تحقيق الحرية للوطن، حتى أنه لم يكن يتمكن من زيارة عائلته وولديه إلاّ نادرا بسبب التزاماته الثورية، حيث كان رجلا يقدس العلم والمعرفة، ويعشق العربية، ويحلم بجزائر لا علاقة لها بالخرافات والعادات البالية حوله القدر النضالي إلى شهيد، ليُكسب عائلته التي فقدته هيبة اسمه الثوري كإرث يتوجون به، وإذا بهم يقعون في دوامة من الصراعات على مختلف الأشكال فعنف الثورة كان ممتدا حتى بعد الاستقلال، وهذه الصراعات امتدت من معاناة سي الطاهر في صفوف التحرير، حتى شملت والدته وزوجته وابنته أحلام وولده ناصر بعد الاستقلال.

" **أحـــلام** أو **حيـــاة** " الابنة الكبرى لـــ سي الطاهر تعلقت كثيرا بخالد الشخص الوحيد الذي حدثها عن والدها المجاهد والشهيد و الإنسان والأب، فراحا معا يفجران الذاكرة الثورية في حديثهما عن الشهيد الطاهر عبد المولى، وما أحدثه غيابه: حيث تتذكر أحلام معاناة **جدتها** فتقول: « يوم الاستقلال بكت جدتي كما لم تبك يوما، سألتها أما لماذا تبكين وقد استقلت الجزائر؟ قالت كنت في الماضي أنتظر الاستقلال ليعود لي الطاهر، اليوم أدركت أنني لم أعد أنتظر شيئا »[15] أما **والدتها** فقد « كانت قليلة الحديث عنه. ربما كانت في أعماقها تعتب على الذين زوجوها منه، فقد كانوا

يزفونها لشهيد و ليس لرجل.. كانت تعرف مسبقا نشاطه السياسي، وتدري أنه سيلتحق بالجبهة بعد الزواج وسيدخل في الحياة السرية، ولن يزورها إلاّ خلسة بين الحين والآخر، وقد لا يعود إليها إلا جثمانا»[16].

وهذا فعلا ما حدث فقد ترملت والدتها التي أخذت منها الحرب زوجها وتركت لها طفلين وكثيرا من الألم ،ولهذا كانت حياة تسأل عن جدوى حمل اسم ثوري مع فقدان دفء وعاطفة الأب الذي حرمتها الثورة منه، فتشكو معاناتها لخالد قائلة: «ما فائدة أن يمنح اسم أبي لشارع كبير، وأن أحمل ثقل اسمه الذي يردده أمامي المارة و الغرباء عدة مرات في اليوم. ما فائدة ذلك إذا كنت لا أعرف عنه أكثر مما يعرفون، وإذا كان لا يوجد بينهم شخص واحد قادر أن يحدثني عنه حقا؟ (...) لا أريد أن أكون ابنة لأسطورة، الأساطير بدعة يونانية، أريد أن أكون ابنة لرجل عادي (...) يحدث أن أشعر أنني ابنة لرقم فقط، رقم بين مليون ونصف مليون رقم آخر»[17]، هذا ما فعلته الثورة بسي الطاهر الذي وهب حياته فداء للوطن، وما كان من خالد سوى أن يخفف من حدة الصراع الذي تعانيه أحلام، فهي ليست الوحيدة التي تعاني من تداعيات الثورة ما بعد الاستقلال، فحتى هو امتدت معاناته وخرج منها مكسورا وحيدا محطما، لدرجة أنه وصف حاله وحالها بالمكابرة والتحدي « لقد بتروا ذراعي وبتروا طفولتك، اقتلعوا من جسدي عضوا.. وأخذوا من أحضانك أبا.. كنا أشلاء حرب و تمثالين محطمين داخل أثواب أنيقة لا غير »[18].

وبالتالي تتحول كلمة **شهيد** إلى ساحة من الصراعات المحتدمة، فـ "**ناصر عبد المولى**" هو الآخر عانى من عبء الثورة التي أورثته اسم **ابن الشهيد** ليرث معه «الخوف الدائم من السقوط والعيش مسكونا بهاجس الفشل، وهو الابن الوحيد للطاهر عبد المولى الذي ليس من حقه أن يفشل

لا في الدراسة ولا في الحياة، لأنه ليس من حق الرموز أن تتحطم، والنتيجة أنه تخلى عن دراسته الجامعية وهو يكتشف عبثية تكديس الشهادات، في زمن يكدس فيه الآخرون الملايين»[19]، ليكون ناصر بهذا مصدر معاناة لوالدته وأخته التي أحزنها أن يتحول إلى تاجر صغير يدير محلا تجاريا وشاحنة وهبتها له الجزائر بصفته ابن شهيد، إذ لا تعتقد أن أباها كان يتوقع له مستقبلا كهذا !.

"**ناصر**" احترم قداسة اسمه دوما، ولم يستغله لأغراض دنيئة، أو لعقد صفقة كتلك التي عقدها عمه "**سي الشريف**" حينما سعى إلى تزويج ابنة أخيه سي الطاهر لأحد كبار الضباط بنوايا سيئة قصد الحصول على منصب وزاري بالطبع ناصر عارض بشدة قران أخته برجل كذلك، وقاطع عرسها كونه على خلاف مع عمه « فهو يعتقد أنه استفاد كثيرا من اسم سي الطاهر، وأنه قلما اهتم بمصير زوجة أخيه وأولاده، وهذا العرس لا هدف له غير أسباب وصولية ومطامع سياسية محض.. فهو ضد اختيار عمه لهذا العريس السيئ الصيت سياسيا وأخلاقيا»[20].

3/2- الصراع الإيديولوجي للشخصيتين الثوريتين سي مصطفى، سي الشريف

لقد ركزت "**أحلام مستغانمي**" في روايتها على إظهار الجانب السلبي للشخصيات الثورية التي استفادت بانتهازية من التاريخ الثوري، من أجل صعود الكراسي والمناصب المشبوهة، وكان "**سي مصطفى**" أحد المجاهدين الذين استنزفوا الاسم الثوري في تحصيل ما يمكن من الأموال والمناصب والعلاقات متجاوزا ومن مثله قداسة الثورة، فكان منطقه الثوري مشابه لمنطق **سي الشريف** و**سي**... وكثير الاختلاف عن منطق خالد الذي يرفض أي مساومة بالوطن، والذي كان يوما رفيقا لسي مصطفى فيقول: « كان سي مصطفى صديقا مشتركا لي ولسي الشريف منذ أيام التحرير، فقد كان ضمن

المجموعة التي كانت تعمل تحت قيادة سي الطاهر، بل وكان واحدا من الجرحى الذين نقلوا معي للعلاج إلى تونس، حيث قضى ثلاثة أشهر في المستشفى عاد بعدها إلى الجبهة ليبقى في صفوف جيش التحرير ويعود برتبة رائد (...) كان يوما بشهامة وأخلاق نضالية عالية، وكنت في الماضي أكن له احتراما و ودا كبيرين ثم تلاشى تدريجيا رصيده عندي. كلما امتلأ رصيده الآخر بأكثر من طريقة وأكثر من عملة، مثله مثل من سبقوه إلى تلك المناصب الحلوب التي تناوب عليها البعض بتقسيم مدروس للوليمة»[21].

استفاد سي مصطفى من الثورة بأن تحول بسرعة من مجاهد ثوري إلى انتهازي، والحال نفسه بالنسبة لسي الشريف الذي لم يجد مانعا في تسلق أمجاد التاريخ داهسا اسم أخيه الشهيد مقدما ابنته أحلام كقربان للحصول على لقب الوزير من دون أدنى مبالاة لذكرى أخيه، فلا وقت له حتى ليحدث ابنته أحلام عنه والتي تقول « عمي لا وقت له لهذا.. وعندما يحدث أن يذكره أمامي يأتي كلامه و كأنه أقرب إلى خطبة تأبينية يتوجه بها لغرباء يستعرض أمامهم مآثر أخيه، ولا يتوجه بها فيها إلي ليحدثني عن رجل هو أبي قبل كل شيء »[22].

يصارع سي الشريف بكل ثمن من أجل تحقيق مكانة مرموقة بين النخبة من الوزراء والسياسيين ورجال الصفقات و« أصحاب النظريات الثورية والكسب السريع، أصحاب العقول الفارغة، والفيلات الشاهقة، والمجالس التي يتحدث فيها المفرد بصيغة الجمع»[23] أولئك الذين لا يهمهم شيء بقدر ما أن يكونوا مجتمعين دائما كأسماك القرش، ملتفين دائما حول الولائم المشبوهة[24] ولم يتردد في برم صفقة اجتماعية سياسية اقتصادية تمثلت في مصاهرته **(لسي...)** الذي لم تضع له الكاتبة اسما إحالة منها إلى قمة الانتهازية، فهو الآخر يريد أن يزين بدلته العسكرية بنجمة جديدة ممثلة

في أحلام ابنة الشهيد سي الطاهر، فلقد كان رجل الصفقات السرية، والواجهات الأمامية، كان رجل العملة الصعبة، والمهمات الصعبة، كان رجل العسكر»[25]، ولم يكن زواجه من **أحلام** رغبة فيها، إنما في الاسم الثوري النظيف الذي تحمله، كان زواجهما صفقة مع الوطن، فلطالما كانت أحلام في نظر خالد وطنا ورمزا مقدسا، و قد كان يدري تماما أن سي الشريف « يقوم بصفقة قذرة، وأنه يبيع بزواجه اسم أخيه، وأحد كبار شهدائنا مقابل منصب وصفقات أخرى، وأنه يتصرف باسمه بطريقة لم يكن ليقبلها لو كان حيـــا»[26]، وبهذا الشكل رسمت أحلام مستغانمي فضاء تتضارب فيه الآراء الوطنية وتتزايد فيه الصراعات الإيديولوجية حول قيم مقدسة، كالوطن والحرية والثورة ..، والتاريخ.

خـــاتمـــة:

والنتيجة التي نتوصل إليها هي أنّ الروائيين الجزائريين استطاعوا في رواياتهم أن ينقلوا للعالم صورا راقية وصادقة عن الثورة الجزائرية بمختلف حيثياتها السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية، فيكفي الإطلاع على إحدى تلك الروايات حتى تطالعنا صورة عن الثورة التي عكست بطولات الشعب الجزائري، وكانت رواية ذاكرة الجسد بحق مسرحا للجدل الإيديولوجي الذي نتج عنه صراع بين الشخصيات الثورية الموظفة فيها، والذي كشف عن الدسائس الاستعمارية، والمطامع المالية ومحاولة تشويه التاريخ من قبل انتهازيين استنزفوا الثقل التاريخي للثورة إرضاءً لجشع مطالبهم.

هـــــوامش:

[1] محمد سعيد فرح، مصطفى خلف الجواد: علم اجتماع الأدب، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان- الأردن، ط1 ،2009، ص171.

[2] المرجع نفسه، ص168.

[3] المرجع نفسه، ص169.

[4] خالد الكركي: الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، لبنان، مكتبة الرائد العلمية، عمان، الأردن، ط1، 1989، ص21.

[5] محمد سعيد فرح، مصطفى خلف الجواد: علم اجتماع الأدب، ص174.

[6] علال سنقوقة، المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ،2000 ص48.

[7] أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، منشورات ANEP، الأبيار، الجزائر، ط1، 2004، ص33.

[8] المصدر، ص34.

[9] رمضان الصباغ: الفن والقيم الجمالية بين المثالية والمادية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2001، ص191.

[10] المصدر، ص61.

[11] علي عبد المعطي محمد: فلسفة الفن رؤية جديدة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 1975، ص49.

[12] محمد حسين جودي: آراء وأفكار جديدة في الفن وتأصيل الهوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1999، ص49.

[13] المصدر، ص147.

[14] المصدر، ص147.

[15] المصدر، ص107.

[16] المصدر، ص108.

[17] المصدر، ص103، 104.

[18] المصدر، ص102.

(19) المصدر، ص104، 105.

(20) المصدر، ص346، 347.

(21) المصدر، ص81.

(22) المصدر، ص103.

(23) المصدر، ص355.

(24) المصدر، ص355

(25) المصدر، ص270.

(26) المصدر، ص272.